أثر السودانيين السياسي والاقتصادي والثقافي على المجتمع المصري في العصور الوسطى

• سر الختم عثمان علي •

نشأت العلاقات بين مصر وبلاد السودان منذ عصور موغلة فى القدم ، وشملت هذه الصلات جوانب متعددة من النشاط البشرى كالدين والثقافة والتجارة، ومن الواضح ان تلك العلائق اخذت تتوثق فى العصور الوسطى وخاصة فى تلك الحقبه التى خضعت فيها مصر للدول الاسلامية المتعاقبة ، ذلك ان انتشار الاسلام والثقافة العربية فى بلاد السودان كان عاملا هاما فى ازدياد التقارب الحضارى والانسانى بين المجتمعين المصرى والسودانى ، كما تمثل ذلك التقارب فى صور شتى كان ابرزها انتقال جماعات من السودان للعيش فى المجتمع المصرى ، على ان تلك الجماعات السودانية مالبثت ان وجدت نفسها مشاركة فى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية .

ولقد تطور هذا النشاط بصورة جعلت العنصر السودانى يمثل مظهرا بارزا فى المجتمع المصرى عندئذ ، وسنتناول فى هذا المقام أثر هؤلاء السودانيين فى المجالات التى اثروا فيها بصورة بينة .

وعندما نتناول اثر السودانيين فى الحياة السياسية بمصر آنذاك ، نجد انهم لعبوا دوراً هاما فى هذا المضمار لاسيما منذ الفترة التى أخذت فيها الدول الاسلامية تولى مناصبها الادارية والعسكرية لعناصر غير عربية ، اذ المعروف ان

---

١ ـ المقصود بالسودانيين سكان تلك المنطقة التى تمتد من البحر الاحمر شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا وتحد هذه المنطقة من جهة الشمال الصحراء الكبرى كما يحدها من جهة الجنوب الغابات الاستوائية وتشير بعض المراجع الى أن بلاد السودان ـ أو أرض السود ـ اسم أطلقه العرب فى العصور الوسطى على هذه المنطقة ، وقد أطلق الكتاب العرب فى العصور الوسطى « لفظ السودان » على كل الشعوب السوداء التى كانت تقطن هذه المنطقة كالاحباش ، والبجه ، والنوبيين ، والزغاوه ، والتكرور ، ـ انظر :

Hasan, Yusuf Fadl, The Arabs and the Sudan, P.I. Edinburgh 1967.

الخليفة العباسى المعتصم عمل على تدعيم سيادة العنصر التركى وبالتالى كسر شوكة العرب • ولقد انعكست هذه السياسة والتى انبعثت من قلب الدولة الاسلامية على مكانة العرب فى مصر ، ذلك ان المعتصم كان قد امر واليه فى مصر بابعاد العرب من دواوين الدولة وقطع العطاء عنهم (٢)

وما لبثت الدول الاسلامية التى تعاقبت على حكم مصر ان انتهجت هذه السياسة ومن ثم كان العنصر السودانى من العناصر التى وجدت طريقها الى الحياة السياسية والعسكرية بمصر بعد تصفية العناصر العربية فى تلك المجالات • ففى عهد الدولة الطولونية ، اصبحوا يشكلون قوة لايستهان بها فى الجيش الطولونى ، كما ازداد عددهم بصورة جعلت احمد بن طولون يخصص لهم قطعية (٣) من القطائع التى كان قد اقامها لسكن العناصر المختلفة التى وفدت الى مصر ، وهنالك مثلا قطيعة لاهل النوبة كانت تعرف بهم (٤) ، وفيما يبدوا ان تغلغل هؤلاء السودانيين فى الحياة المصرية اخذ يشتد حتى احس به أهل مصر فى جوانب معينة من نشاطاتهم ، اذ ذكر المؤرخ الكندى ان اهل مصر كانوا قد اشتكوا لاحمد بن طولون ضيق المسجد يوم الجمعة بسبب تدفق الجنود والسودانيين ، فكان ان امر احمد بن طولون نتيجة لذلك ببناء مسجد جديد بجبل يشكر (٥) •

وعندما قامت الدولة الاخشيدية بمصر استمر هؤلاء السودانيون يشكلون قوة هامة فى جيشها ، حيث نجد أن محمد بن طغج الاخشيدى ــ مؤسس هذه الدولة يجند عدداً كبيراً من النوبيين فى جيشه ، وربما كان السبب فى تدعيم مكانة هؤلاء النوبيين فى تلك الدولة مايقال من ان كافورا ــ والذى كان من ابرز رجال حرس الاخشيدى ــ فى الاصل من بلاد النوبة ، وذلك استنادا على قصيدة للمتنبىء يهجو بها كافورا وكان المتنبىء قد وصف كافورا فى هذه القصيدة « بالابّى » نسبة الى الاّبه وهى موضع ببلاد النوبة كما يقال (٦) ، فقد جاء فى تلك القصيدة قول المتنبىء : ــ

كأن الاسود الاالّبى فيهم غراب حوله رخم وبوم

٢ ــ الكندى : ولاة مصر ص ٢٤٥ .
٣ ــ القطنعة بمنزل الحاره ــ انظر المقريزى : الوعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، ج ١ ، ص ٣١٣ •
٤ ــ البلوى (عبد الله بن محمد) : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٣ .
٥ ــ الكندى : نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .
٦ ــ ياقوت الحموى (شهاب الدين ابو عبدالله) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣٠٨ .

ومهما يكن من أمر فقد تبوأ كافورمكانة عالية فى الدولة الاخشيدية وبسط سيطرته عليها وكان من الطبيعى ان يجندكافور خلال فترة حكمه كثيرا من النوبيين فى الجيش (٧)

وعندما جاءت الدولة الفاطمية استمرالسودانيون يكونون عنصرا هاما فى الجيش الفاطمى ، وذلك منذ عهد الخليفةالفاطمى الحاكم بأمر الله ، على ان هذه الدولة أخذت تستعين بعناصر أخرى مثل البربر والاتراك فى بناء جيشها ، ولقد تعرض الجنود السودانيون الى نوع من الاضطهاد فى اواخر عهد الخليفة الحاكم وربما كان السبب فى ذلك تلك المنافسةوالتى ترتب عليها اخيرا تقلص نفوذ السودانيين فى الجيش الفاطمى (٨) •ولكنهم ما لبثوا ان استردوا مكانتهم فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر • ويقال إن السبب فى ذلك ان أمه كانت من اصل سودانى ولذلك تم تجنيد عدد كبير منهم حتى بلغ حوالى خمسين ألف (٩) • غير انه بالرغم من نجاحهم فى استعادة مكانتهم فى عهد الخليفة المستنصر إلا أنهم مالبثوا أن تعرضوا لنكبات أخرى ، اذ يبدو ان نموقوتهم من جديد دفعهم للأستبداد بالمجموعات الأخرى من ناحية ، وللطموح السياسى من ناحية أخرى ، ونتيجة لذلك تضافرت ضدهم المجموعات الأخرى فى الجيش كالاتراك والبربر والتحمت معهم فى معركة مشهورة استطاعت أن تلحق بهم هزيمة نكراء فى عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، وعلى اثر هذه الهزيمة التى منو بها تم ابعاد عدد كبير منهم من القاهرة الى صعيد مصر •

وعندما ننتقل للدولة الايوبية التى خلفت الدولة الفاطمية نجد ان السودانيين صاروا يشكلون قوة سياسية خطيرة حتى اصبحوا يناوئون السلطة معتمدين على قوتهم العسكرية وكثرتهم العددية ، ولقدتفجرت هذه المعارضة منذ بداية حكم صلاح الدين الايوبى ذلك ان صلاح الدين كان قد قتل مؤتمن الخلافة الذى كان فى نفس الوقت مقدم السودان أى رئيسهم أو زعيمهم ، فاثار صلاح الدين بذلك ثائرة السودانيين حيث هبت مجموعة منهم يربو عددها على الخمسين ألف

---

٧ ـ Hasan, Yusuf Fadl, Ibid; p. 47.

٨ ـ ابن ميسر (محمد بن على) : اخبار مصر ، ص ١٤ . مصر ١٩١٩ .

٩ ـ الشيال (جمال الدين) : تاريخ مصر الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

ورفعت راية المقاومة ومن ثم اشتبك الطرفان فى موقعة انتهت بهزيمة السودانيين وفرار اعداد منهم الى صعيدمصر حيث تتبعهم صلاح الدين حتى قضى على عدد كبير منهم (١٠) • ولقد ادتهذه الهزيمة الى اضعاف مكانة السودانيين فى المجتمع المصرى بصفة عامة ، ذلك انهم كانوا قبل تلك الواقعة يشكلون قوة سياسية واجتماعية لايستهان بها حتى انه كان لهم فى كل مدينة وقرية مصرية حي خاص بهم ، لايدخله حاكم أو أى ممثل للسلطة احتراما لهم ، ويقال ان قطيعتهم أى (حارتهم) كانت من اكبر القطائع ولكن بعد حدوث تلك الواقعة المشهورة أمر صلاح الدين بتخريبها (١١) والواقع ان الاسلوب العدائى الذى انتهجه السودانيون نحو الدولة والجماعات الأخرى ادى الى تدهور وضعهم ، وكما يقول المقريزى فى هذا الصدد « وكان الضرر بهم عظيما فلما كثر بغيهم وزاد تعديهم اهلكهم الله بذنوبهم فى واقعة السودان (١٢) » ومهما يكن من امر فأن أولئك السودانيين تقهقروا الى صعيد مصر واصبحو يتحدون سلطة الدولة الايوبية (١٣) •

ومن الملاحظ ان حركات السودانيين المناوئة للايوبيين لم تقتصر على قلب الدولة بل امتدت أيضا الى اطرافها فى صعيد مصر وذلك حينما اشتركوا فى الغزو الذى شنه النوبيون على شمال اسوان فى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م(١٤) ، وهناك اشارة الى ان هذه المجموعة السودانية هى جزء من فلول الجيش الذين فروا من القاهرة على اثر سقوط الدولة الفاطمية وتولية صلاح الدين الحكم ، ومن المحتمل ان يكون اهل النوبة قدعملوا على ايواء تلك الفلول السودانية •

ومهما يكن من أمر فقد قامت القوتان ــ فلول الجيش من السودانيين والنوبيين بشن ذلك الهجوم على اسوان وحصارها ، وكان واليها عندئذ هو كنز الدولة الذى زعر لذلك الهجوم وسارع يطلب العون من صلاح الدين الذى استجاب له وجند حملة لمساعدته ، وكانت بقيادة الشجاع البعلبكى ، حد قواده

---

١٠ ــ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٤٨ .

١١ ــ أبوالفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٤٨ .

١٢ ــ المقريزى (تقى الدين احمد بن على) المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، ج ٢ ص ١٩ .

١٣ ــ Hasan, Yusuf Fadl, Ibid; p. 48.

١٤ ــ المقريزى (تقى الدين احمد بن على) السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الاول ، ج ١ ص ٥٠ .

المشـــهورين وكان ان اتجهت تلك الحملةالى اسوان وعندما بلغها البعلبكى وجـد ان النوبة وفلول الجيش من السودانيينرفعوا الحصار عن اسوان وغادروها بعد ان نهبوها وخربوها ولكن البعلبكى سارفى أثرهم بعد أندعم قواته بمجموعةمن بنى الكنز ، وما لبث ان التقى الطرفـــان فىمعركة ضاريه قتل فيها عدد من الجانبين .

وبالرغم من أن البعلبكى قد خاض معركة اولئك السودانيين فى بلاد النوبه الا ان ضرارة المعركة لم تردع السودانيينعن مواصلة مناوأتهم للدولة الايوبية فقد ظلوا يتحدونها باستمرار الامر الذى جعل صلاح الدين يجـرد عليهم حملة بقيـادة أخيه تورانشاه الذى سار اليهم وهزمهم فىمعركة عنيفة عام ٥٧٠ هـ / ١٧٧٤ ومـن الواضح ان هذه المعـركة كانت القاضيةبالنسبة لما كان يثيره الســودانيون مـن متاعب سياسية للدولة الايوبية . هذا الى ان الروح العدائية التى بادروا بها هـذه الدولة جعلتها تستغنى عـن خدماتهم فىجيشها وبالتالى تعتمد فى مضمار الخدمة العســكرية عـلى الاتـراك والاكـرادوالديلم (١٥) ومن ثم لم تعد هنالك رغبة فى الاستفادة من هؤلاء الســودانيين فىمضمار الخدمة العسكرية (١٦) ولا شك ان فى ذلك ضربة شـديدة بالنسبة لنفوذالســودانيين العســكرى والذى ظلـوا يمارسونه بصورة واضحة منذ ان تضاءل النفوذ العربى فى الدولة الاسلاميةبمصر .

ومهما يكن من امر فأن خطر السودانيين على أمن وسلامة الدولة الايوبية قد انتهى بصورة حقيقية فى عهد صلاح الدين ، غير ان العهود التى تلت ذلك من تاريخ الدولة الايوبية لم تخل من نفـوذ بعض السودانيين على السلطة والطمع فيها فمثلا هناك اشارة الى رجل نوبى كان يعد من ابـرز الامـراء فى الاسرة الكاملية (١٧) ويـدعى جوهـر النوبى ، والذى كانت سلطته قد طغت بدرجة جعلته يثور على الملك العادل ابى بكر بن ايـوب ويتمكن من خلعه ، على ان سيطرة جوهر النوبى لم تدم طويلا ، ذلك انـه عندما تولى الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل بعد أخيه العـادل ، قبض على جوهر النوبى واقصاه عن الحكم (١٨) .

---

١٥ ـ أبو شامه (عبد الرحمن بن اسماعيل) : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ص ٢٠٨ .

١٦ ـ Hasan, Yusuf Fadl, Ibid; p. 49.

١٧ ـ نسبة للكامل أيوب .

١٨ ـ المقريزى (تقى الدين احمد بن على) المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، ج ٢ ص ١١٩ .

وفى عهد سلاطين المماليك فى مصر ،وهى الحقبة التى تلت الدولة الايوبية نجد ان اثر السودانيين فى المحيط السياسى كان يتركز فى الجوانب الادارية أى تقلد المناصب الادارية ، والاشراف على بعض شئون القصر كجزء من المهام الحكومية ، فمثلا فى عهد السلطان المملوكى الملك الظاهر ، تبوأ احد النوبيين مكانة عظيمة فى الدولة اذ عينه الملك الظاهر أمير جانداره (١٩) كما منحه الكثير من المتلكات (٢٠) .

وفيما يبدو ان نفوذ السودانيين فى قصور المماليك لم يقتصر على الجانب السياسى بل كانوا يشاركون فى تربية وتنشئة أبناء السلاطين الامر الذى جعلهم موضع تجلة واحترام هؤلاء الابناء عندما يشبون ويتقلدون السلطة ، فمن ذلك مثلا ان رجلا نوبيا يدعى صبيح بن عبدالله الخازن استطاع ان يتبوأ مقاما كبيرا فى نفس سلطان الاشراف بن قلاوون وذلك بفضل ما كان يتمتع به ذلك الرجل النوبى من صفات خلقية حسنة ــ كالتدين وحب الخير ، وليس ادل على كبر مقامه من ان الاشرف وكبار رجال دولته لا ينادونه الا بلفظ « يا أبى » والواضح ان شهرته قد ذاعت حتى لنجد مؤرخا كبيرا يعده احداعيان القرن الثامن الهجرى ويترجم له ضمنهم ، وفى ذلك يقول ابن حجر عن صبيح النوبى : كان مقدما فى دولة الاشراف حتى كان الاشرف لا يقول له الا يا ابى فكان الاكابر يدعونه بذلك ، وقد مات سنة ٧٧٥ هـ / وخلف مالا كثيرا وكان يوصف بخير ودين (٢١) وربما كانت مكانة صبيح النوبى فى دولة بنى قلاوون تماثل المرتبة التى كان يحتلها بعض وزراء الدولة العباسية ، امثال الفضل بن الربيع وذلك فيما يتعلق بدوره فى تنشئة الامين بن هرون الرشيد ، اذ انه كان لاولئك النفر شأن كبير فى حياة القصر السياسية والاجتماعية .

واذا كان العنصر السودانى قد احتل مراكز كبيرة وخطيرة فى المناصب السياسية الكبرى للدولة المملوكية ، فاننا نلمس أيضا بعض اثاره فى دواوين تلك الدولة ، فقد قيل ان احد سلاطين المماليك استخدم فى بعض دواوينه احد الموظفين

---

١٩ ــ أمير جانداره هو الذى يستأذن دخول الامراء للسلطان ، هذا الى انه يتقدم موكب السلطان فى سفره انظر القلقشندى (ابو العباس) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ٣ ص ١٦٤/١٦٥ .

٢٠ ــ ابن عبد الظاهر (محى الدين) : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص ٣ .

٢١ ــ ابن حجر العسقلانى : ابناء القمر بانباء العمر ، ج ١ ورقة ٧٠ (مخطوط) .

الذين لهم المام بلغة التكرو (٢٢) ، ليس هذا فحسب بل اسند اليه منصبا اداريا كبيرا هو منصب نظر الخاص والجيش (٢٣) • ولعل وجود هذه الوظيفة (أى ترجمان التكرور) يدل على عمق الصلة بين دولة المماليك فى مصر وذلك الجزء المسمى بالتكرور من بلاد السودان ، وربما تجلت هذه الصلة فى مظاهر مختلفة منها مثلا زيارة ملوك التكرور لمصر فى طريقهم للحج ونزولهم ضيوفا على سلاطين الدولة المملوكية ، مثلما فعل منسا موسى سلطان مالى (٢٤) كذلك كانت هنالك رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك فى مصر وملوك السودان الغربى •

وفيما يبدو ان ظاهرة مترجمى التكرور قد أخذت تشيع فى مصر فى ذلك العصر حيث اشار بن خلدون الى احدهم ـ ويدعى يونس ـ باعتباره ترجمانا للتكرور وهو الشخص الذى امد ابن خلدون بكثير من المعلومات التى اوردها عن السودان الغربى (٢٥) •

وعندما تتعرض لاثر هؤلاء السودانيين فى احوال مصر الاقتصادية فى العصور الوسطى ، نجد ان هذا الاثر يتضح بصورة جلية فى عصر المماليك كما يتجلى فى مظهرين أساسيين اولهما ماعرف فى هذا الوقت بالتجارة الكارميه ، وثانيهما مرور مواكب الحج السودانية عبر مصر فى طريقها للاراضى المقدسة وما كان يسفر عنه من تنشيط للحياة الاقتصادية فى مصر •

أما فيما يتعلق بالتجارة الكارمية فهناك رأى يقول بأن لفظ « كارميه » مأخوذ عن الكانم وهى من مماليك السودان الغربى التى أزدهرت فى العصور الوسطى ،

---

٢٢ ـ المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ص ٧٦ .

٢٣ ـ « نظر الخاص » وظيفة انشاها السلطان الناصر محمد بن قلاوون والفرض منها الاشراف على أموال السلطان وان صاحب هذه الوظيفة صار بمثابة الوزير لقربه من السلطان وتصرفه فى تدبير جملة الامور ، ولكنه لا يستطيع التصرف التام فى هذه الشئون اذ عليه الحصول على موافقة السلطان ، أما وظيفة نظر الجيش فالفرض منها الاشراف على الاقطاعات بمصر والشام ورفع تقرير عنها الى السلطان وأخذ موافقته فيما يتعلق بتنفيذ بعض السياسات الهامة بشأنها ـ انظر القلقشندى : المصدر السابق ، ج ١١ ص ٣١٦ ـ ٣٢١ .

٢٤ ـ يطلق على منسا موسى أحيانا ملك التكرور وفى هذا الصدد يقول العمرى فى كتابه « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » ج ٢ ورقة ٤٩٥ مخطوط « وصاحب هذه المملكة ـ أى مملكة مالى ـ هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا انفا منه لان التكرور انما هو من اقاليم مملكته والاحب اليه ان يقال صاحب مالى لانه الاقليم الاكبر وهو به أشهر » .

٢٥ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٠١

وكانت تحتل المنطقة القائمة حـول بحيرةتشاد ، ويشـير هذا الرأى الى ان اسـم الكانم انتشر بين من اشتغلـوا بتجـارةالبهار ، بعد ان حدث تصحيف فى الاسم فاصبح كارم (٢٦) فاذا ما صح هذا الرأىوهو ربما كان التحديد الوحيد حتى الآن لاصـل الكارميه (٢٧) ، فعندئذ تكونهذه الفئة من السودانيين (٢٨) قد لعبت دورا عظيما فى الحياة الاقتصادية بمصر فىالعصور الوسطى ذلك ان سلعة البهار التى كانوا يتاجرون بها تعتبر من الثروات التىقامت عليها عظمة دولة المماليك فقد كـان البهـار من الاصناف التى اشـتد اقبالالاوربيين عليها ودفع فيها التجار الغربيون اسـعارا عالية (٢٩) ثم ان حكـام مصرادركوا اهمية التجارة الكارميه فاولوهـا عنايتهم فاهتموا بتجارها وبذلـوا لهـمالمساعدات التى تسهل مهمتهم فمثلا نجد ان تقى الدين عمر بن اخ صـلاح الدينالايوبى بنى لتجار الكارم فندقا عرف بهم فى الفسطاط على شاطىء النيـل ، حيثكانت ترسو السفن محملة بالتوابل (٣٠) ولقد اتسع نشـاط تجار الكارم خـارجالقاهرة ، فكان لهم فندق فى قوص حيث كانت ترد اليها بضائع الكارم من عيذاب ثم تنتقل مـن قوص الى فنـدق الكارم بالفسـطاط (٣١) والواضـح ان قوصاصبحت من المراكز التجارية الهامة لتجار كارم بدليل انهم كونوا فيها رابطة تجاريةكانت تسيطر على تجار التوابل والبخور، وكانت تحتكر هذه السلع احيانا ، وصارلهذه الرابطة رئيس معترف به من قبـل حكومة المماليك (٣٢) .

ولا شك ان مثل هؤلاء التجار كانواعلى جانب كبـير من الثراء بحيث كان فى وسعهم ان يقرضوا اموالا طائلة لمن يلجأاليهم عند الحاجـة ، فقد اشـارت بعض المراجع الى ان السلطان منساموسى وبعضرجـال حاشـيته اقترضـوا مـالا من

---

٢٦ ـ مصطفى زياده : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ القسم الثالث حاشية رقم ٢ ص ٨٩٩ .

٢٧ ـ اكتنف الغموض اصل الكارمية ويرى بعضالمؤرخين ان التماثل فى اللفظ كارم وكانم ليس دليلا كافيا لاثبات الصلة بين الاول والثانى . انظر: Hasan, Yusuf Fadl, Ibid; P. 72 F.N. 178.

٢٨ ـ هناك اشارة الى أن فئة تجار الكارم كانت تضمعناصر أخرى مثل اليهود والمسيحيين ، أنظر : Hasan, Yusuf Fadl, Ibid.

٢٩ ـ سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٠/٢٩١ .

٣٠ ـ لبيب (صبحى) : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى القرون الوسطى ـ المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع العدد الثانى ص ٥٠ ـ عام ١٩٥٢

٣١ ـ القلقشندى : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٥٣ .

٣٢ ـ سعيد عاشور : المصدر السابق ص ٢٩١ .

سراج الدين بن الكويك ، احد كبار التجار الكارميه وذلك عندما مر ذلك السلطان بمصر فى طريق عودته من الحجازعام ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م (٣٣) .

وفيما يبدوا انه كانت لبعض هؤلاء التجار الكارميه اهتماما أخرى الى جانب نشاطهم التجارى اذ ان هناك اشارة الى ان تاجرا كارميا يدعى برهان الدين بن المحلى كان قد اسس مدرسة بجوار قصره الكبير فاستطاع كثير من الطلاب المصريين ان يتلقوا فيها العلم (٣٤) . (٣٥) .

اما المظهر الثانى لاثر السودانيين فى الحياة الاقتصادية بمصر فيتعلق بمواكب الحج التى كانت تعبر مصر فى ذهابها وايابها على ان اشهر تلك المواكب موكب السلطان منساموسى ، الذى سبق ان اشرنا اليه ، فقد افاضت بعض المصادر العربية فى وصف ركب منساموسى للحج واقامته بمصر . فقد قيل ان هذا السلطان خرج من بلاده وفى ركبه مائة جمل محملة بالذهب ، انفقه جميعه فى حجه على القبائل التى كانت فى طريقه من بلاده الى مصر ثم انفق جزءا كبيرا بمصر ثم من مصر الى الحجاز ، ثم انفق ما تبقى فى العودة حتى احتاج الى القرض فاستدان من بعض التجار فى مصر . وقد ترتب على هذه الزيارة ازدهار فى العلاقات الاقتصادية بين سلطة المماليك وسلطة مالى السودانية ، ويقال ان ما افاض به هذا السلطان فى مصر من عطاء الذهب انعكس بصورة كبيرة فى الحياة الاقتصادية فى مصر لفترة طويلة ذلك انه بالاضافة الى الهدايا من الذهب ، دخل افراد الركب المالى اسواق القاهرة لشراء البضائع المصرية وانفقوا فى ذلك مقادير عظيمة من الذهب حتى انخفض سعره انخفاضا كبيرا فى مصر بعد ان كان عاليا ، ولعل المؤرخ بن فضل الله العمرى قد رسم صورة حية لهذه الآثار الاقتصادية حين قال : ــ

« ولقد كسب أهل مصر عليه ــ أى السلطان منساموسى ــ وعلى اصحابه فى البيع والشراء والاخذ والعطاء ما لايحصر وبذلوا الذهب حتى اهانوا فى مصر قدره وارخصوا سعره ، وحدثنى خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم فان الرجل منهم كان يشترى القميص والثوب وازرار وغير

---

٣٣ ــ لبيب صبحى : المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

٣٤ ــ المقريزى ، ص ٩ .

٣٥ ــ العمرى : المصدر السابق ، ج ٢ ورقة ٤٩٤ « مخطوط » .

ذلك بخمس دنانير وهو لا يساوى دينارا (٣٥ (٣٦) . ولقد استمرت مواكب الحج السودانية تعبر مصر فى غدوها ورواحها وتحدث فيها تلك التأثيرات الاقتصادية .

واذا كان عصر سلاطين المماليك قد تميز بتطورات هامه فى الحياة الثقافية والعلمية والدينية ، فقد كان للسودانيين دور ملحوظ فى ولوج هذه الحياة المزدهرة فى شتى نواحيها ، شأنهم فى ذلك شأن الجماعات التى وفدت الى مصر فى هذا العصر وطاب لها المقام وشاركت فى الحياة العامة وفى الاوضاع الاجتماعية بوجه خاص (٣٧) .

وعندما نستعرض الحياة العلمية فى هذا العصر ، نجد ان اثر السودانيين فى هذا المجال يتمثل فى مظهرين : احدهما وفادة الطلاب السودانيين لمصر والآخر ظهور علماء سودانيين فى المحيط العلمى ـ اما بالنسبة للجانب الاول فالواضح ان المجتمع كان ذاخرا بمقومات الحياة العلمية مما جذب اعدادا وفيرة من ابناء المسلمين الى مصر ، فقد كانت هناك المدارس الاسلامية العريقة وعلى رأسها الازهر الشريف الذى كان ومايزال كعبة للقاصدين من طلاب العلم الذين يفدون اليه من جميع الجهات وكان ابناء السودان يمثلون عنصرا بارزا فى الازهر ، كما صارت لهم اروقة تعرف بهم وكانت هذه الاروقة موضع عناية بعض حكام مصر المتعاقبين ، وتشير بعض المراجع الى ان الاصلاح الذى اجرى على الجامع الازهر فى العصر العثمانى شمل تجديد رواق التكروريين (٣٨) كما تعرض رواق البرنو (٣٩) والدارفوريه للتجديد فى فترات معينه (٤٠) والى جانب هذه الاروقة فقد كان هؤلاء الطلاب المغتربون يجدون وسائل الاقامه والعيش فى القاهرة التى ذخرت آنذاك بالفنادق والوكالات والحانات (٤١) ولابد ان نشير الى ان عدد الطلاب التكروريين قد تضاعف بالقاهرة على اثر زيارة السلطان منساموسى،

---

٣٦ ـ العمرى : المصدر السابق ، ج ٢ ورقة ٤٩٤ « مخطوط » .
٣٧ ـ سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٥ .
٣٨ ـ خفاجى (محمد عبد المنعم) : الازهر فى الف عام ، ص ٧٢ .
٣٩ ـ كانت للبرنو مملكة فى العصور الوسطى وقد قامت فى منطقة بحيرة تشاد .
٤٠ ـ رصد (سليمان) : كنز الجوهر فى تاريخ لازهر ، ١٠٢ ـ ١٠٥ .
٤١ ـ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٩ .

ذلك ان هـذا السلطان شجـع ارسـال البعوث الطلابية من بلاده الى مصر ، وكان ينفق على هؤلاء الطلاب خـلال اقامتهم هنـاك (٤٢) .

على ان نشاط السودانيين فى المجالات العلمية لم يقتصر على ايفاد الطلاب بل كانت لهم مساهمة فى انشـاء دور العلم بمصر ، اذ ان هنالك اشارة الى ان اهـل مملكة الكانم اسسوا مدرسـة لتدريس الفقـه المالكى بالقاهرة ، وصارت هـذه المدرسة وهى مدرسـة ابن رشيق ـ من اشهر مدارس العصور الوسطى بمصر ، وليس ادل على ذلك من أن ذكرها قد وردضمن المدارس المصرية الكبيرة التى اشار اليها المقريزى فى هذا الصدد حين قال : «وهذه المدرسة ـ أى مدرسة ابن رشيق ـ وهى بخط حمـام الريش مـن مدينـة مصر (٤٣) كان الكانم من طوائف التكرور لما وصلوا الى مصر فى سنة بضع واربعين وستمائة قاصـدين الحج دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بناها به ودرس بها فعرفت به وصـار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة وكانوا يبعثون اليها فى غالب السنين المال (٤٤) .

واذا كان الطلاب السودانيون قـد نهلوا من العلم والثقافة الاسلامية بمصر فأن هنالك مجموعة من العلماء السودانيين الذين شاركوا بعلمهم وفكرهم فى اثراء تلك الحياة العلمية ، لاسيما وأن مصر كانت فى ذلك العصر تحتل مكانة علمية عظيمة ، اذ تحـول اليها علماء كثـيرون ومـن بلاد مختلفة ، اتخذوا من مصر مقرا لنشـاطهم ومأوى لحياتهم (٤٥) .

وفى ذلك الجو المشبع بالفكر والمعرفة مارس العلماء السودانيون نشاطهم ، ثم مالبث ان ذاع صيتهم فى هذا المجال حتى ان بعـض كتب التراجـم الاسـلامية المشهورية تضمنت ذكرهـم ، ومن هؤلاء العلماء مثلا صبيح بن عبد الله التكرورى اللكوتانى ، فقـد تلقى العـلم على علماء افـذاذ امثال الشيخ النجيب والشـيخ شمس الـدين بن العمـاد ، ولم يقتصر نشاط صبيح التكرورى فى مضمار العلم

---

٤٢ ـ نعيم قداح : افريقيا الغربية فى ظل الاسلام ، ص ٥٥ .
٤٣ ـ يقصد مدينة القـاهرة .
٤٤ ـ المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، ج ٢ ص ٣٦٥ .
٤٥ ـ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

على مصر بل امتد أيضا الى الشام ، حيث ذهب الى دمشق ودرس بها وقد توفى عام ٧٣١ هـ / (٤٦) .

كذلك اشتهر نفر من ابناء الكانم فى هذا المضمار ، مثال ذلك عبد الملك بن على الكانمى الذى تلقى العلم على الشيخ النجيب ثم قام بالتدريس فى مصر فى بداية القرن الثامن الهجرى (٤٧) .

وفيما يبدو ان دور هؤلاء العلماء السودانيين لم يقف عند التدريس بل تعداه الى الانتاج العلمى فى مجال التأليف والذى غالبا ما يدل على مستوى جيد فى الاصالة العلمية والاجتهاد ومن الذين برزوا فى هذا المجال محمد بن احمد بن عثمان التكرورى ويعرف بالتكرورى ، كما كان يطلق عليه أحيانا لقب الغانى ، نسبة لغانا فى بلاد التكرور وقد ولد فى عام ٦٩١ هـ بالقرافه الكبرى ، ثم حفظ القرآن وأخذ الفقه والرسالة ، وقد ألف كتابا بخط يده وتقدم فى صناعة الكتب (٤٨) .

كذلك امتد اثر السودانيين الى الحياة الدينية حيث شهد المجتمع المصرى فى عصر سلاطيم المماليك مجموعة من السودانيين الذين اشتهروا بالتقى والورع والزهد وصار لهم كثير من المريدين ، ومن الذين اشتهر امرهم فى هذا الجانب رجل يدعى الشيخ محمد ابومحمد يوسف التكرورى الذى اعتقد بعض المصريين فى صلاحه ، وكان هذا الشيخ قد جاء الى قرية من قرى الجيزه تعرف بمينة بولاق ، فاقام بها ، ومن ثم عرفت فيما بعد ببولاق التكرور بمناسبة نزول هذا الشيخ التكرورى بها على أنه ليست هناك اشارة الى السبب الذى جاء بهذا الشيخ الى القاهرة ، هل جاء حاجا عبر مصر أم مهاجرا ؟ والراجح ان يكون فى سياحة دينية وهى ظاهرة معروفة فى العالم الاسلامى . ومهما يكن من امر فقد قيل ان الناس اعتقدوا فيه « وجربوا بركاته ودعائه » وتحدثوا عن كرامات كثيرة منسوبة ليه . كما انه عندما توفى ، بنيت على قبره قبة وشيد مسجد بجانبها وقد

---

٤٦ ـ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنه فى اعيان المائة الثامنه ، ج ٢ ص ٢٠٥ .

٤٧ ـ ابن حجر العسقلانى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤١٥ ـ ٤١٦ .

٤٨ ـ السخاوى : الضو اللامع لاهل القرن التاسع ، ج ٧ ص ٢٢١ .

٤٩ ـ يبدو أنه قد حدث تصحيف فى هذا الاسم فصار يعرف بـ « بولاق الدكرور » والذى يقع الآن غرب مدينة القاهرة ويتبع اداريا لمحافظة الجيزة .

جدد هذا المسجد وتم توسيعه على يد احدامراء المماليك ويبدو ان الضريح والمسجد قد نقلا من مكانهما الاول الى داخل البلدوذلك تجنبا لخطر الفيضانات (٥٠) .

وفيما يبدو ان التكرور كانوا يشكلون الغالبيـة العظمى من الزهـاد والعباد السـودانيين بمصر ذلك ان بعض المصادرتذكر أيضا فى هذا المجال الشيخ راشد بن عبد الله التكرورى الذى كان من المشايخ المجذوبين الذين يعتنقهم العامـة ، وكان مقيما بجامع راشد الكائن ببركه«الحبش»وقد توفى فى عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤م (٥١) وهناك أيضا من اثار اهتمام الناس بصلاحه ونسكه وزهده ومن هؤلاء الشيخ فاتح بن عثمان التكرورى ، فقد قيل انه جاء مصرمن مراكش واستقر بمدينة دمياط ثم مالبث ان لازم احد مساجدها حتى سمى به ، أى جامـع فاتح وقـد تـوفى فى عـام ٦٩٥ هـ / ١٢٩٣ م (٥٢) والارجـح أن يكون هذا الشيخ قد جاء أيضا فى سياحة دينية لاسيما وان مصر كما اسلفنا الذكر كانت قبلة لرجال العلم والمناشط الاسلامية الأخـرى .

واذا ما انتقلنـا للحيـاة الفنية فى المجتمـع المصرى فى العصـور الوسطى نستطيع ان نتبين بعض الآثار السودانية فى هذا الحقل . ومع ان المصادر لم تذكـر ادلة متعـددة لانماط الفنـون التى كان يمارسها السودانيون بمصر الا ان بعض المصادر قد اشارت الى ن جمـاعة مـن التكرور قد شـاركت بفنونهـا فى احياء الاحتفال بالعيـد الذى اقامـه كافـور الاخشيدى ، وفى هـذا الصـدد يقول ابن اياس « ومما وقع له » أى « كافور »انه كان جالسا فى موكبه فى يوم عيد فدخل عليه طائفة من التكرور يرقصـون ومعهم طبل وطنبور (٥٣) . وليست هناك اشارة ما اذا كانت هذه الجماعة التكرورية مقيمة بصـفة مستديمة بالقصر الملكى أم كانت تستقدم من الجماعات التكرورية المقيمة بمصر للمشـاركة بفنونها فى احيـاء تلك المناسبات ، على اننا سـبق ان ذكرنـا ان كافورا استخـدم اعـدادا كبـيرة مـن

---

٥٠ ـ المقريزى : المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٢٦ .

٥١ ـ ابن حجر العسقلانى : ابناء الضمر بابناء العمر ، ج ١ ورقة ٥٨٢ « مخطوط » .

٥٢ ـ المقريزى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٥/٢٢٦

٥٣ ـ ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ٤٣ .

السودانيين خلال فترة حكمه وخاصة فى المجال العسكرى (٥٤) ومهما يكن من أمر فأن ظهور أولئك التكرور فى تلك المناسبات برقصهم وموسيقاهم كان فرصة مواتية للمصريين كى يتعرفوا على لون من الفن السودانى .

ومما تقدم يتضح لنا ان السودانيين كانوا يشكلون عنصرا بارزا فى الحياة المصرية فى العصور الوسطى فقد انخرطوا فى الجيوش المصرية ، كما كانوا فى بعض العهود ـ كالدولة الايوبية خاصة ـ يستغلون قوتهم العسكرية فى القيام بحركات سياسية مناؤة للحكومة ، وبالفعل فقد كانوا مصدر خطر حقيقى .

هذا الى أنه قد تسنى لبعضهم تقلد مناصب سياسية وادارية عليا . ومن المهم أن نشير الى أن اهميتهم لم تقتصر على الجانب السياسى فحسب بل امتدت الى الجوانب الاقتصادية . وهنا نجد انهم كانوا يكونون دعامة هامة للاقتصاد المصرى كما يتمثل فى تجار الكارم ، وذلك افتراضا على انهم من منطقة الكانم السودانية . هذا لى ان مواكب حجاج مملكة مالى عبر مصر كانت تمثل عاملا هاما فى انعاش اسواق القاهرة . كما انه فى المجال الاجتماعى شهد المجتمع المصرى نشاطا سودانيا واسعا تمثل فى طلاب العلم والعلماء ورجال الدين . وفضلا عن ذلك فهناك مايدل على مشاركتهم فى النشاط الفنى . ولعله من المهم ان نشير الى ان نشاط السودانين بمصر قبل قيام سلطنة المماليك كان منصبا ـ الى حد كبير ـ على الجوانب السياسية والعسكرية ، ثم مالبث ان تركز فى الجوانب الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك . وفى نظرى ان هذا التغيير يعزى لسببين : أولهما مااعترى العنصر السودانى فى الجيش المصرى من تصفية كبرى منذ قيام الدولة الايوبية بسبب ما سببوه لها من متاعب . وثانيهما ان العلاقات بين مصر والسودان الغربى خاصة اتخذت طابعا ثقافيا ودينيا واضحا الامر الذى ترتب عليه اتجاه السودانيين نحو هذه المناشط الانسانية . واخيرا فمن الواضح ان جماعة التكرور كانوا يعتبرون ابرز العناصر السودانية التى اثرت فى المجتمع المصرى فى العصور الوسطى كما أن أهل السودان الغربى والاوسط كانوا أكثر مشاركة من أهل السودان الشرقى فى المجالات العلمية والثقافية . وربما كان مرد هذا التفوق العلمى الى الحج ، فضلا

---

٥٤ - Hasan, Yusuf Fadl, Ibid; p. 47.

عن اثر المغرب العلمى والدينى العميـــق على مجتمعات السودان الغربى والاوسط. هذا الى ان السودان الشرقى كان واقعـــا عندئذ تحت سيطرة الممـــالك المسيحية ، والتى كانت تمثل حجـــر عثرة فى سبيـــل تغلغل الاسلام فى ذلك الجزء من السودان. ولقد استمرت تلك الممالك تمثل هذا المانع حتى استطاع المسلمون ان يسقطوا مملكة المقـــرى فى نهايـــة القـــرن الخامس عشر الميلادى ومملكة علـــوه فى نهاية القـــرن السادس عشر الميلادى . وهذه هى المرحلة التى بدأ فيها المجتمع المصرى يجتاز مرحلة العصور الوسطى .

المصـــادر والمراجـــع العربيـــة

١ ـ ابن اياس (محمد بن احمد) : كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ بولاق ١٣١١ .

٢ ـ البلوى (عبد الله بن محمد) : سيرة احمـد بن طولون ـ دمشق ١٩٣٩ .

٣ ـ ابن تغرى بردى (ابو المحسن) : النجوم الزاهره فى ملوك مصروالقاهره ـ القاهرة «١٩٢٩ـ١٩٥٢» طبعـة دار الكتب .

٤ ـ السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : الضوءاللامع لاهل القرن التاسع ـ القاهرة ١٩٣٤ .

٥ ـ أبوشامه (عبد الرحمن بن اسماعيل) : كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين ، جزءان ، مصر ١٢٨٧هـ

٦ ـ الشيال (جمال الدين) : تاريخ مصر الاسلامية ، جزءان ، مصر ١٩٦١ .

٧ ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح) (١) العصر المماليكى فى مصر والشام ، مصر ١٩٦٥ .
(٢) المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك ، مصر ١٩٦٢ .

٨ ـ العسقلانى (شهاب الدين بن على) الدر الكامنه أعيان المائة الثامنه ـ جيدراباد ، الهند ـ ٤ أجزاء (١٣٥٠) .

٩ ـ العسقلانى (شهاب الدين بن على) ابناء الغمر بابناء العمر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

١٠ ـ العمرى (ابن فضل الله) : (١) التعريف بالمصطلح الشريف ، مصر ١٣١٢م

(٢) مسالكالابصار فى ممالك الامصار ، الجزء الثانى والثـالث

مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رمز معارف عامة رقم ٥٥٩

١١ ـ ابو الفدا (اسماعيل بن على) : المختصر فى اخبار البشر ، بولاق (١٢٩٤) ٤ اجزاء .

١٢ ـ القلقشندى (ابو العباس) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ٤ اجزاء ، مصر ١٩١٣ ـ ١٩١٧ .

١٣ ـ لبيب (صبحى) : « التجارة الكارمية وتجارةمصر فى العصور الوسطى » ـ المجـلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع العدد الثانى ، عـام ١٩٥٢ .

١٤ ـ المقريزى (تقى الدين احمـد بن على) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، مصر ١٩٣٤م .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار ، جـزءان ، بولاق (١٢٧٠هـ) .

١٥ ـ ابن ميسر (محمد بن على) : اخبار مصر .

١٦ ـ ياقـوت الحموى (شهاب الدين) : معجم البلدان ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٧ .

Hasan, Yusuf Fadl : The Arabs and the Sudan, Edinburgh (1967).
Lane — Poole, S. : History of Egypt in the Middle Ages. London (1914).
Muir, W. E. : The Mamluk & Slave Dynasty of Egypt. London (1896).